

الرغبة فى البكاء

فى طريق العودة، لم نكن تبادلنا إلا بضع كلمات مقتضبة . وقد حاولت الانصراف أكثر من مرة، ولكنه راح يلح على فى ضيق أن أظل باقياً معه . ولم يمر وقت طويل حتى وجدتنى أفضل ذلك . أفضله لأننى لم أكن قد اكتشفت بعد مكاناً محددًا يمكننى أن أنصرف إليه، ولأننى من جهة أخرى لم أكن أشعر بالاهتمام نحو هذا الأمر، بنفس القدر الذى كنت أشعر فيه برغبتى فى عدم البقاء . وهكذا ظللنا نسير حتى بلغنا الطرف الآخر من المدينة . وفى هذا الطرف الآخر من المدينة رأيت البيت الذى اعتدت فى الفترة الأخيرة أن أعيش داخله . وقلت له على الفور :

- اسمع ، سأمر على هذا البيت وأعود .

قال :

- أنتظرك هنا .

قلت :

- أفضل أن تسبقنى أنت .

أشاح بوجهه :

- ولكنك لن تعود .

قلت :

- أردت أن أمر على هذا البيت .

تطلع من فوق رأسى :

- أردت أن أجلس معك بعض الوقت .

قلت :

- سأذهب معك الآن ، ولن أمر على هذا البيت .

وسرت بجواره تجاه بيته الذى تركناه وراءنا . مر بعض الوقت ثم دخلنا
بناية كبيرة وسرنا فى حوش طويل وصعدنا درجات ودخلنا من باب
الشقة . قال وهو يشير إلى بضعة مقاعد داخل الشرفة :

- تحب نجلس هنا؟

جلست ونظرت إلى ساعتى فوجدتها متوقفة . غاب للحظات ثم عاد
ومعه زوجته ويده خالية من نتيجة التحليل الذى أحضرناه من عند
الطبيب . مدت لى كفاً صغيرة دافئة واستدارت عائدة ولم أسمع لخطواتها
أى صوت . قال وهو يجلس فى مواجهتى :

- ما رأيك؟

حاولت أن أملاً ساعتى فوجدتها ممتلئة . قال :

- أهلاً وسهلاً .

تركت معصمى :

- أهلا بك .

تغيرت طبقة صوته وهو يميل إلى أمام :

- يا أخى موضوع غريب جداً .

قلت :

- على أى حال كل شىء ممكن علاجه .

تراجع إلى ظهر مقعده :

- الشىء الوحيد الذى يؤمنى هو أننى لم أكن أتوقع . لم أكن أتوقع أبداً .

- عدم التوقع مؤلم بالتأكيد .

قلت :

- الشىء الوحيد الذى يؤمنى .

- فعلاً .

وأشعلت سيجارة . وأشعل أخرى . وتلفت حولى .

كانت الشرفة متسعة وفى جانب منها دولاب ظهر من خلف زجاجه الذى علاه الغبار ، عدد كبير من الكتب . وفى الخارج كانت هناك مربعات غير متساوية من الأرض التى أجرى تقسيمها تمهيداً لبنائها . وكانت الشمس على وشك المغيب عندما قال :

- تعتقد أن كل شىء يسير سيراً حسناً ، وفجأة تكتشف وضعاً بهذه القسوة ، دون أن يكون لك أى ذنب .

- أنا فى رأى أن أهم شىء هو المواظبة على العلاج .

- سأواظب ، ولكنى غير متفائل .

- لا . يجب أن تتفاءل .

نفض رماذ سىجارته وزفر فى ضعف :

- هل سمعته وهو يقول إننى أهملت الأمر حتى ازدادت الحالة سوءاً؟

- سمعته .

- شىء غريب . أليس كذلك؟

هزرت رأسى . قال :

- كيف يمكنك أن تهمل شيئاً لا تعرف عنه شيئاً؟

قلت :

- فعلاً .

قال :

- ألا تصدق أننى لم أفعل هذا الشىء أبداً؟

- ولا قبل زواجك؟

- أبداً .

- أبداً أبداً؟

- أبداً يا أخى . وعلى أى حال أنت تعرف .

- أعرف أى شىء؟

- تعرف أننى لا أفعل شيئاً مثل هذا .

قلت :

- فى الحقيقة أنا لا أعرف .

- كنت أعتقد أنك تعرف . صحيح كانت هناك بعض المحاولات ولكنها

لم تتم . ونظر إلى بعينه الكبيرتين :

- أرجو أن تصدقنى ولا تفعل مثلهم .

قلت :

- أصدقك .

وأطفأت سيجارتى . وعمقت ظلال المساء . وأقبلت زوجته تحمل

صينية مستديرة . لاحظت أن الزواج لم يذبل ثدييها وأن هناك ثلاثة أكواب

من الشاى . قال :

- اقعدى يا هدى .

أبعدت ركبتى بينما هى تمر بينى وبين المنضدة وتجلس على المقعد

الداخلى . ومرت فترة طويلة من الصمت . استطعت خلالها أن ألمح وجه

زوجته عن قرب . لم تكن بيضاء تماماً ولكن شعرها كان أسود وفى عينيها

بسمة قلقة . وكانت تشرب الشاى فى تلذذ واضح . وشعرت بأنى مرهق

ولم أعد متأكداً من أنها صغيرة السن . . سمعته يقول :

- على فكرة، هدى بنت خالتى .

قلت :

- آه :

قالت :

- تعرف سميرة؟

- سميرة؟

- سميرة التي تسكن في بيتكم .

- آه . سميرة . أعرفها طبعاً .

قال هو :

- من سميرة؟

قلت :

- ابنة بائع الموبيليا الذي شتق نفسه .

قالت هي :

- كانت زميلتى فى المدرسة .

لاحظت أن قميص البيت الذى ترتديه لم يكن نظيفاً إلى حد ما .

قلت :

- صحيح؟

قالت :

- ما هذا؟

وابتسمت: ألا تصدق؟

- لا أصدق أى شيء؟

- أنها كانت زميلتى فى المدرسة؟

- أصدق طبعاً .

- ولكنك تصنعت الدهشة .

قال هو:

- ولماذا يندهش؟

ضحكت هى:

- اندهش فعلاً ولكنك لم تره .

قلت:

- فى الحقيقة لم أقصد أبداً أن أندهش .

هزت كتفيها:

- لا يهم .

- من الجائز أن يكون ظهر على الاندهاش، ولكننى لم أقصد أبداً أن

أندهش .

- قلت لا يهم .

- ثم لماذا أندهش لأن سميرة كانت صديقتك؟

- أنا لم أقل إنها كانت صديقتى . أنا قلت إنها كانت زميلتى .

قال هو :

- حقيقى يا هدى ، لماذا يندهش؟

ومال عليها ، وضحك فجأة وهو يواصل :

- قبل أن تحضرى كنا نتحدث عن ذلك الموضوع .

والنتفت إلىّ وغمز بعينه : أليست حلوة؟

وانفجر ضاحكاً مرة أخرى وهو يربت على خدها قبل أن يسحب يده .

وتطلعت إليه وشعرت بأننا نلتقى بعد فراق طويل . وقالت هى :

- صحيح؟

قال وهو يتحرك على مقعده :

- طبعاً .

وأشعل سيجارة أخرى :

- إنه صديق قديم كما تعرفين .

قلت وأنا أضحك :

- قديم جداً فى الحقيقة . كنت أقول له إنكما مازلتما صغيرين .

النتفت هو ناحيتى فوقعت السيجارة من يده . وشعرت بها تصبب عينيها

فى عيني مباشرة . قلت :

- أقصد أنكما صغيران وأمامكما . . .

هزت رأسها بينما قاطعنى هو :

- لا لا . الحكاية كلها .

وتوقف قليلاً :

- كل ما فى الأمر أننا لم نكن . أقصد أنني لم أكن . لقد أوضحت لك .

قلت :

- فعلاً .

التفتت هى إلىّ وهمت أن تقول شيئاً . قال هو :

- سأحاول أن أوجز لك الأمر . فى البداية . فى البداية كان عندى تصور

معين للوضع .

قلت :

- آه .

- ثم اكتشفت أن تصورى للوضع لم يكن واضحاً . لم يكن واضحاً

بالشكل الكافى . أتفهمنى ؟

قلت :

- أنت تعرف أنني مقتنع ، وليس هناك داعٍ لشرح أى شىء .

- وبالرغم من دهشتى فقد كنت فى حالة تسمح لى باكتشاف ذلك ،

وكانت مفاجأة لى بطبيعة الحال ، وتأملت جداً .

لم أقل شيئاً . قال وقد ظهرت عليه الدهشة :

- هذا كل ما فى الأمر .

وأراح ظهره على ظهر المقعد :

- على فكرة هدى بنت خالتي . هل أخبرتك؟

قالت هي :

- أخبرته .

قلت :

- فعلاً .

والتفت إليه . ورأيته يتطلع إلى الخلاء عبر الشرفة . قلت :

- متى ستبنى هذه الأرض؟

قال :

- أى أرض؟

قالت هي :

- أنا لا أطيق التفكير فى هذا الموضوع .

قلت :

- فعلاً .

- عندما كانت مزروعة كان المنظر من هنا رائعاً .

- على أى حال مازال هناك وقت طويل قبل أن . . .

قال هو :

- فى الحقيقة المسألة . . .

قالت :

- المبانى ستمنع عنا الهواء .

- ليس لهذه الدرجة .

قلت :

- أود أن أتصرف .

- ولكنك كنت تقول دائماً . . .

قال هو :

- نعم نعم . ولكن . . .

- هل غيرت ؟ . .

- لا أبداً . أبداً .

قلت :

- عندى بعض المشاغل .

- سيمنعون عنا الهواء .

وابتسمت وهى تلتفت إلى :

- أتمنى ألا يبنوها . عندما ترى سميرة بلغها سلامى .

قلت :

- حاضر . أود أن أنصرف .

كان وجهه شاحباً وجبهته منحدره إلى الوراء كما كان مبتسماً .

قال :

- لماذا؟

- بعض المشاغل .

- اجلس قليلاً .

- لا . أود أن أنصرف .

وقفت : سأعود مرة أخرى .

ولم تمد لي يدها ، بل تطلعت إلى بعينين ضاحكتين وهزت رأسها مجيبة على تحيتي . وتبعته عبر الصالة . وعندما استدرت خارج الباب لأصافحه ترك لي يده لأهزها دون أن يتكلم .

وهبطت الدرجات وأنا أتكى على حاجز السلم . واجتزت الحوش الطويل المظلم . ووقفت على عتبة البيت . وشعرت بألم فى قدمي . ورأيت الناس .

أكتوبر- ١٩٦٥